نظرية الاعداد للحياة المستقبلة

ونظريات أخرى فى اللعب

للدكتور على عبد الواحد وافى

يلاحظ أن لصغار كل طائفة من الحيوانات — بما فيها الانسان — ألعابا محدودة تشبه تماما الأعمال الجوهرية التى تقوم بها كبار هذه الطائفة ، أو بعبارة أخرى ، تشبه تماما الأعمال الأساسية التى سيضطرها نوع حياتها هى إلى القيام بها بعد طور الطفولة .

فالهريرة مثلا تثب أثناء لعبها على الكرة أو على قطعة الورق التى تمررها أمامها ، كما تثب الهرة الكبيرة على الفأرة ، وكما ستثب هى نفسها فى المستقبل على فريستها ، وبعد لحاقها بها تعبث بها عبثاً مشبهة حركاته الحركات التى تعملها الهرة مع الفأرة بعد اقتناصها ، وواضح أن الصيد هو أهم مايحتمه على الهرة جنسها ونوع حياتها .

والحملان تتناطح أثناء لعبها مناطحة مشبهة حركاتها لما يعمله الخراف الكبار أثناء دفاعها عن نفسها ، الأمر الذى يتكون منه أهم قسم من مظاهر نشاطها والذى يحتمه عليها ضعفها وكثرة أعدائها الأقوياء . وما قلناه فى الهر والحمل يصدق على ما عداهما من الطوائف الحيوانية .

ولكننا لانرى أبداً — من بين الألعاب التى تقوم بها صغار أية طائفة حيوانية — ألعابا تمثل مظاهر النشاط الأساسية ، التى تقوم بها كبار طائفة أخرى ، فلو أمررت أمام الحمل أو الطفل الانسانى حبلا ، ما حدثته نفسه باتباعه والوثوب عليه كما تفعل الهريرة ، ولم نر طفلا إنسانياً يناطح زميله ، أو هريرة تناطح هريرة أثناء لعبهما كما تفعل الحملان .

وقد دعت هذه الحقائق العالم الألمانى (كارل جروس) إلى تقرير « نظرية الاعداد للحياة المستقبلة » فى كتاب له، عنوانه « ألعاب الحيوانات »، ظهر سنه ١٨٩٦ . وهى تتلخص فى أن ألعاب كل كائن حيوانى فى طور طفولته ، ما هى إلا إعداد له للمستقبل ، أى تمرين له على الأعمال الجدية التى سيحتمها عليه نوع حياته فى طور الرجولة .

يولد الحيوان مزودا بكمية من الغرائز والاستعدادات الوراثية ، التى تتلاءم مع نوع حياته ، ومع الأعمال الأساسية للطائفة الحيوانية التى ينتمى إليها ، غير أن هذه القوى الوراثية ليست بحالة تسمح لها أن تؤدى وظائفها بشكل جدى وبطريقة منظمة ، بل هى محتاجة لأن تدرب أولا على أداء هذه الوظائف فى أمور غير جدية وغير منهكة ، حتى تمرن

عليها وتقوى على القيام بها على الوجه الجدى الكامل . وكلما كانت الطبقة التى ينتمى إليها الحيوان راقية ، ومتعددة أعمالها ، كان الوقت الذى يتطلبه هذا التدريب طويلا وبالعكس ، لذلك زودت الطبيعة الطفل الحيوانى بغريزة اللعب ليقوم بوساطته بهذا التمرين ، وجعلت طور الطفولة ، أى الزمن المخصص للعب متلائما مع رقى الطبقة التى ينتمى إليها ومع أعمالها . فالطفولة تكاد تكون معدومة عند أحط طبقات المملكة الحيوانية ، كالحيوانات الصدفية وما إليها ، فى حين أنها أطول ما تكون عند أرقى هذه الطبقات وهو الانسان — وهذا ما دعا (كارل جروس) إلى أن يقول « لا يلعب الكائن الحيوانى لأنه طفل ، بل إنه قد منح الطفولة ليلعب » .

فأنت ترى أن العناصر التى تتألف منها النظرية التى نحن بصدد الكلام فيها ، تجعلنا نعتبرها النقيض لنظرية ستانلى هول(١) : فبينما هول يقرر أن ليس للعب وظيفة إلا القضاء على غرائز لا تتلاءم مع بيئة الطفل ، وتطهيره من الماضى ، إذ (جروس) يثبت أن وظيفته الفذة تقوية غرائز ضرورية لنوع حياته ، وإعداده للمستقبل .

هذا ، واعتبار اللعب عاملا من عوامل الاعداد للحياة المستقبلة قد رآه ، قبل كارل جروس ، كثير من العلماء ، نخص بالذكر منهم : جان جاك روسو ، وفروبل ، وجون ستراتشان (طبيب انجليزى أبدى هذا الرأى فى كتاب له عنوانه « ماهو اللعب ؟ » ، ظهر سنة ١٨٧٧ ، وظل مجهولا لكثير من المربين حتى أوائل القرن العشرين) . غير أن لكارل جروس يرجع الفضل فى عرض هذه النظرية بشكل فنى ، وفى بنائها على أسس علمية متينة ، فهو جدير — إلى حد كبير — بأن تنسب إليه .

وهى أصدق ماقيل فى وظيفة اللعب وفى أسبابه ، إذ لا يكاد يرد عليها أى اعتراض من الاعتراضات التى وجهناها للنظريات السابقة ، والتى يكفى الرجوع إليها(٢) ، ليتبين لك ما تشتمل عليه هذه النظرية الجليلة من صدق الملاحظة وبعد النظر ، ومتانة البحث .

ولكنه من الصعب التسليم ، مع بعض المتعصبين لها ، بأن ليس للعب وظيفة غير الاعداد للحياة المستقبلة . حقا إن الوظيفة الأساسية للعب هى تلك التى تحدثنا عنها هذه النظرية ، ولكن اللعب مع أدائه هذه الوظيفة الأساسية يقوم بوظائف أخرى ، كثير منها ذو أهمية فى حياة الطفل الفردية والاجتماعية . ومن هذه الوظائف ماتنبه له قائلو النظريات السابقة (الراحة(٣) ، تفريغ القوى الزائدة عن الحاجة(٤) ، التخلص من بعض اتجاهات وراثية ، لا يتلاءم بقاؤها عند الطفل مع الشكل الذى تتطلب حياته الاجتماعية أن يكون عليه(٥)) ، ومنها ما تنبه له قائلو النظريات التى سنذكرها لك .

---

(١) راجع عدد يونية سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » صفحات : ٢١١ — ٢١٤

(٢) راجع عدد يونية سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » صفحات : ٢٠٩ — ٢١٤

(٣) عدد يونية ٢٠٩ ، ٢١٠ (٤) ٢١٠ ، ٢١١ (٥) ٢١١ — ٢١٤

نظرية المساعدة على النمو الجسمى

قرر الأستاذ « كار » أن اللعب عامل من العوامل المساعدة على نمو أعضاء الجسم المختلفة ، وخاصة المخ وبقية أعضاء الجهاز العصبى ، نموا يساعد هذه الأعضاء على القيام بوظائفها على الوجه الصحيح .

عند مايولد الطفل لا يكون مخه بحالة تسمح له بأداء وظيفته أداء كاملا ، فان كمية كبيرة من منسوجاته تكون وقتئذ مجردة من الغشاء « الميلينى » أى من الغشاء الدهنى الذى يفصلها بعضها عن بعض ، كما تفصل « الجو تابيرشا » (الصمغ السومطرى) الأسلاك الكهربائية بعضها عن بعض — ومن المقرر أن الأنسجة المخية لا يمكنها القيام بوظائفها حق القيام ، مادامت مجردة من هذا الغشاء الميلينى ، وأن مما يساعدها على اكتسابه تدريجيا إثارتها بأداء الحركات التى تشرف على أدائها مراكز هذه الأنسجة . فاللعب ، لاشتماله على حركات يشرف على أدائها كثير من المراكز العصبية ، يعمل على إثارة الأنسجة المخية وتحريكها ، إثارة وتحريكا يكسبانها تدريجيا ما يعوزها من الأغشية « الميلينية » ، ويعدانها بذلك لأداء وظائفها على الوجه الكامل .

وقد أيدت التجارب مايقوله الأستاذ « كار » بشأن المراكز المخية ، فاننا لو خطنا جفنى هر منلا بعد ولادته مباشرة ، وتركناه كذلك مغمض العينين بضعة شهور ، ثم اختبرنا مخه لوجدنا مراكزه النظرية (أى المراكز المخية المشرفة على أعمال النظر) ، قد وقف نموها ولم تكتسب الغشاء الميلينى ، وذلك لأنه لم تتح له فرصة إثارة أنسجتها وتحريكها ، بأداء الحركات المشرفة عليها هذه المراكز ، فقد حالت عمليتنا بينه وبين استعمال عينيه . ولو قطع ذراع طفل أو رجله بعد ولادته مباشرة أو فى طور طفولته الأولى ، ثم اختبرنا مخه بعد بضع سنين ، لوجدنا مراكزه الحركية (أى المراكز المخية المشرفة على الحركة) ، قد وقف نموها ، ولم تكتسب الغشاء الميلينى ، وذلك لنفس السبب الذى ذكرناه فى التجربة الأولى . وما قلناه فى المراكز النظرية والحركية ينطبق على ما عداها من مراكز المخ المختلفة ، وبذلك تصدق النظرية البيولوجية التى تقول « الوظيفة تخلق العضو » أى أن استعمال عضو قاصر عن أداء وظيفته فى الأعمال التى خلق لأجلها استعمالا متكررا يشكله تشكيلا عضليا يسمح له بأدائها على الوجه الكامل .

هذا فيما يتعلق بتأثير اللعب فى نمو المخ ، أما تأثيره فى نمو العضلات نموا يساعد على قيامها بوظائفها على الوجه الكامل ، فلسنا فى حاجة الى البرهنة عليه ، فقد أصبح من البديهيات أن كثرة استخدام عضو فى أمر ما ، تنميه وتشكله تشكيلا عضليا خاصا ، يسمح له بأداء هذا الأمر بسهولة (وهذا من أسس تكوين العادة) . وفى الحركات اللعبية يستخدم الطفل كثيرا من أعضائه فيما خلقت له ، فلا جرم أن تكون هذه الحركات من عوامل

نموه الجسمى وإعداد أعضائه للقيام بوظائفها .

وهذه النظرية ، تتفق مع النظرية السابقة فى أن كلتيهما تعتبر اللعب عاملا من عوامل الاعداد للحياة المستقبلة ، لتمرين قوى الطفل على القيام بوظائفها ، وتختلفان فى تحديد القوى التى يؤثر فيها اللعب هذا التأثير : فالأولى تنظر إلى تأثيره فى الغرائز والاستعدادات النفسية، وهذه تنظر إلى تأثيره فى المخ وبقية الأعضاء الجسمية

ومما يجب التنبيه إليه أن الأستاذ (كار) لم يزعم أن ليس للعب وظيفة إلا المساعدة على النمو الجسمى ، بل قد كان غرضه من نظريته مجرد بيان وظيفة من الوظائف التى أغفلها قائلو النظريات السابقة ؛ وبذلك لم يدع لأحد أى مجال للاعتراض عليه .

نظرية التوازن

ليس لدى الانسان من الأعمال الجدية ، ما يسمح بأشباع كل اتجاهاته وغرائزه ، فلكل منا وظائف خاصة فى حياته العملية ، لاتكاد تغذى إلا طائفة قليلة من هذه الغرائز والاتجاهات. وقد زودت الطبيعة الانسان باللعب، ليقوم بوساطته بتغذية مالا تسمح حياته العملية بتغذيته من غرائزه واتجاهاته ، وبذلك يستقر التوازن بين مختلف قواه النفسية . فالكاتب أو الطالب مثلا حينما يقضى أوقات فراغه فى ألعاب الصيد ، أو الزراعة ، أو الحرب ، أو الفروسية ، أو السباحة ، أو الغناء ، أو فى تسلق الجبال ، أو فى قطع المسافات سيرا على الأقدام ، أو فى تجذيف القوارب . . . يغذى بذلك مالديه من الاتجاهات التى لا تسمح أعماله الجدية باشباعها ، والتى لا يمكن أن يتركها معطلة تماما دون أن يختل التوازن بين قواه النفسية .

وأول من قرر هذه النظرية الأستاذ (كونراد لانج) وهى ، كسابقتها ، تنبهنا إلى وظيفة ذات أهمية ، غفل عنها قائلو النظريات السابقة ؛ غير أن هذه الوظيفة لا تتحقق بشكل تام إلا فى بعض ألعاب من جاوز طور الطفولة .

نظرية التنفيس أو التهدئة

قد زودت الطبيعة كل انسان بطائفة كبيرة من الغرائز والاتجاهات الشديدة السيطرة على النفس، والتى قيدت النظم الاجتماعية كيفية استعمالها تقييدا لايسمح لكل فرد باشباعها. فغريزة المبارزة والغريزة التناسلية، مثلا، لم تجز النظم الاجتماعية تلبية نداءها، إلا فى أحوال خاصة وبقيود كثيرة ، (الأولى فى حالة الحرب أو الدفاع عن النفس وما إليها . ، والثانية فى حالة زواج شرعى أو ملك يمين . . .) . أحوال وقيود تحولان دون إشباعها عند كثير من الناس ، فاللعب ـ لاشتماله

على عناصر غير محظورة اجتماعيا، وشبيهة بالأمور التي يتطلبها الأشباع الحقيق لهذه الاتجاهات. من شأنه أن يرضيها بعض الشيء فيهدىء سورتها ، ويخفف من حدتها ، ويحول دون ما عساه أن يحدث من جراء تركها بدون أى غذاء من الانفجارات السيئة المغبة للفرد والمجتمع ، أو من جراء تلبية ندائها تلبية كاملة من تعدى الحدود الاجتماعية .

وإليك طائفة من العناصر اللعبية التى نشير إليها :

١ ـ ألعاب من شأنها أن تهدىء غريزة المبارزة: ألعاب الكرة، و«التنس»، والملاكمة، والشطرنج والرد ، والنكات الهجومية ، والمسابات الهزلية ... الخ

٢ ـ ألعاب من شأنها أن تهدىء الغريزة التناسلية، (وتظهر بشكل واضح فى طور البلوغ): رقص الرجل مع المرأة (عند الامم التى تجيزه تقاليدها) ، قراءة الروايات الغرامية ، قرض النسيب ، الخيالات الغزلية ... الخ ... الخ .

وتتفق هذه النظرية مع النظرية السابقة، فى أن كلتيهما تعتبر اللعب عاملا من العوامل المشبعة للاتجاهات غير ميسور إشباعها بطرق جدية ، وفى أن كلتيهما لا تصدق تماما إلا فى بعض ألعاب من جاوز طور الطفولة ، وتختلفان فى تحديد الاتجاهات ، التى يؤثر فيها اللعب هذا التأثير : فالأولى تنظر إلى اتجاهات لاتسمح حياة الفرد العملية باشباعها ، وهذه إلى اتجاهات تحول النظم الاجتماعية دون إجابة داعيها .

وصاحب النظرية التى نحن بصدد الكلام فيها ، هو الأستاذ « كار » القائل بنظرية « المساعدة على النمو الجسمى» السابق ذكرها .

وظائف ثانوية للعب

للعب ـ فضلا عن الوظيفة الأساسية، التى تقدم لك ذكرها فى النظريتين الأوليين: الاعداد للحياة المستقبلة والمساعدة على النمو الجسمى ، وفضلا عن الوظائف التى تنبه لها قائلو النظريات الأخرى ـ وظائف أخرى ثانوية يرجع إلى الاستاذ كار، فضل الارشاد إلى كثير منها، أهمها ما يلى:

(أولا) اللعب ينقذ الانسان من الملل والضجر وضيق الصدر ، وما إلى ذلك من الأمور الألمية ، التى يسببها عادة عند بعض الناس عدم وجود أعمال جدية لديهم .

وهذه الوظيفة تقرب من الوظيفة المذكورة فى نظرية القوى الزائدة (١) (ففيها تفريغ قوى مكدسة) ، ومن الوظيفة المذكورة فى نظريتى التوازن والتهدئة (ففيها إشباع اتجاهات غير ميسور إشباعها بطرق جدية) . ومن الواضح أن هذه الوظيفة لا تكاد تتحقق بشكل تام إلا فى بعض ألعاب من بلغ سن الرشد .

(ثانيا) اللعب ينسى الأنسان ما لديه من الالام الجسمية والنفسية ، أو على الأقل يخفف

(١) راجع مجلة « المعرفة » عدد يونيه ١٩٣٢ ص ٢١٠

من وطأته . فكثيرا مارأينا مرضى تهون عليهم آلامهم حدة مصابهم الجسمانى ، وجنودا مبعوثا بهم إلى ساحة القتال ،تلهيهم أغنياتهم وجلباتهم اللعبية ؛ عن التفكير فيما يحيط بهم من المخاطر . . . وهلم جرا .

(ثالثا) اللعب عامل من العوامل التى تقوى فى الطفل غرائزه الاجتماعية ؛ فلا يخفى أن طائفة كبيرة من الألعاب تشعر الطفل بحاجته القصوى إلى الجماعة ؛ وأن بعض ألعاب تشتمل على أمور جديرة بأن تتعهد اتجاهاته المدنية ؛ وتعمل على إنمائها، وتحبب إليه الجمعية (ألعاب الأعياد ، والرقص ... الخ) . ومن الممكن اعتبار هذه الوظيفة جزءا من الوظيفة المذكورة فى نظرية الاعداد للحياة المستقبلة .

(رابعا) بعض أنواع الألعاب يساعد على إيصال التقاليد الاجتماعية المعمول بها فى جيل ما إلى الجيل اللاحق له ؛ وذلك كالأغنيات القصصية (لكل شعب أقاصيصه التى تحتوى على كثير من تقاليده ونظمه الاجتماعية) ، وكالأغنيات الوطنية ، وكالألعاب التى يحاكى بها الأطفال أفراح أمتهم، وماتمها وأعمالها الدينية ، ونظمها التعليمية ، ومجتمعاتها السياسية ... وما إلى ذلك .— ومع أن هذه الوظيفة المهمة قد اتفقت بها الأمم الانسانية ، من منذ أقدم عصورها ، فان كثيرا من المربين الحاليين لم ينتبهوا لها .

- هذا — ومن الميسور اعتبار هذه الوظيفة مظهراً من مظاهر الاعداد للحياة المستقبلة ؟

على عبد الواحد وافى

بين انسان وحمامة . . ! !

(بقية المنشور على الصفحة ٣٢٢)

وتعلقاتك ، ولكن كل هذا لا يجديك فتيلا ، ولا يغنى عنك بديلا ، فلقد خلقنى الله سيد المخلوقات ، وأقرنى على ما فى هذه الأرض من الكائنات ، ووهب لى عقلا أزن به كل شىء ولذا فضلنى تفضيلا ؛ فأقول لك إن الدموع لا تجدى فى الحياة ، وإنما الذى يجدى هو القوة . ! ! فان لها دائما الغلبة والسلطان ، وإن الحياة لا يستحقها إلا من يستطيع أن يقاوم ويتغلب ، ويجالد الأعاصير ويقهر ، ولا يستحق أن يعيش تحت الشمس إلا من يتحمل حرارتها ، ويقدر منفعتها ، ويستغل كل ذرة من ذراتها ، وأما الضعيف الواهن الذى لا يستطيع أن يقاوم ويعيش كلا على غيره فلايستحق أن يعيش ، ولا أن يتمتع بحرارة الشمس ، والحياة جلاد لا تجديها الدموع ولا التوسلات !!!

السيد العنانى